

جيوش كسرى أنوشروان

لم تهدأ حماسة الشعب ، ولم تسكن خفة طربه الجامح الذي تولاه منذ استوى عاهله كسرى أنوشروان على إيوانه . فقد ظل سبعة أيام تتدفق وفوده صوب القصر الكسروي هاتفة للشاه الجديد هتافاً ما زال يشند ويتقد حتى خرج بها عن وعيها .

وجلس كسرى على عرشه في تلك الليلة يحتفل بمرور أسبوع على أسعد حادث قديقع لانسان ، وقمع إلى يمينه عمه الأكبر ، وإلى يساره عمه الآخر . وامتدت أمامه حلقة دار بها رقص القيان الحسان ، وأحاط بالحلقة العازفون والزمارون يذكون الرقص بأنغامهم الشجية ، ومن وراء هؤلاء جلس أعيان البلاد وسراتها .

أخذ كسرى ينظر إلى ما حوله نظرة الحالم ، وازدحمت في رأسه الخواطر التي ظلت تهيمن عليه طوال الأيام السبعة . كانت هذه الخواطر تدور حول معنى واحد ، هو أنه صار مالك الملك والمتحكم في رقاب أولئك الناس الجالسين حوله ، والمزدحمين أمام قصره ، والمنششرين في أرجاء مملكته . ولما كان الجشع يزداد بازدياد الغنى ، فانه طفق يحلم بتوسيع رقعة ملكه ، ومضاعفة عدد رعاياه ، ثم زخرف له الوهم أمانى حسبها قرية المنال ، وهي أن يخضع العالم بأسره لسلطانه الشامل .

وفي أثناء الفترة التي توقف فيها العزف ليستأنف العازفون دوراً جديداً ، ملا الغرفة هتاف السابلة بجياة سيدهم الجديد . وتقدم الوزير في خشوع إلى مليكه ، وتوسل إليه أن ينزل فيفضل على عبيده المتشوفين في الطريق إلى اجتلاء طلعتة الملكية باطلالة قصيرة من نافذة قاعة العرش ليثلج صدورهم ، ويمتع نواظرهم . ونزل الشاه الخطير وقبل الرجاء ، وتهادى بين صمى الساجدين له إلى النافذة ، فقبول بصيحات طرب تصم الآذان ، وجازى الصائحين على إخلاصهم بابتسامته تم عن رضاه السامى . رأى من خلال أغصان الأشجار

ألوان المصاييح ذات الورق المكور المكسر ، واستطاع أن يتبين على ضوءها ذلك الحشد الزاخر الذى ضاق به شارع القصر على اتساعه ، واطمأنت نفسه إلى دلائل ولاء رعيته . ثم خاض بين الساجدين فى وقار عائداً إلى سدته العلية . ولكنه لم يكد يطمئن فى أريكته بعد عودته حتى توقف هتاف السابلة فجأة ، وساد الشارع صمت رهيب أعقبه هرج ومرج . وأسرع الوزير إلى النافذة ليتبين ما حدث ، فانطلق قلبه إذ رأى فلول الجماهير تولى الأديار متوارية فى الأزقة المظلمة ، وإذ سمع الكلمة الرهيبة تهدهج كالحشيرة فى أفواه الجازعين : « الثوار . . . الثوار » .

وهب الشاه واقفاً وقد أفضه الجزع وقاره . وجالت عيناه ذات اليمين وذات اليسار . وتقدم خطوتين ثم نكص فى ارتياح على عقبه . وجرى بعض الحضور من علية القوم إلى النافذة يستزيدون من أخبار ما يجرى خارج القصر . وتردد بعضهم الآخر لا يدري أيظهر للشاه عطفه وعزمه على الدفاع عنه حتى الموت فيتعرض لسخط الثوار فى حالة فوزهم ، أم يعرض عنه فيتعرض لسخطه فى حالة إخفاقهم .

وخاب أمل الشاه فى شعبه بعد أن كان موقناً منذ برهة من ولائه له . وتقوض على حين فجأة صرح آماله الباسق ، ولم يعد يملأ رأسه فى تلك اللحظة إلا خاطر واحد ، هو الاهتمام إلى مخرج من المأزق الذى وقع فيه . ولم يجروؤ وزيره الذى نعم بآلاء أبيه على التخلى عنه وخذلانه فى محنته ، فأسرع إليه واقتاده إلى باب النفق السرى الذى أعد من قديم لمثل هذه المناسبة المنكودة . وهروا وراءهما الأميران اللذان كانا يزينا العرش منذ برهة يجلس أحدهما إلى يمينه والآخر إلى يساره . وقال الوزير لساداته وهو يهيم باغلاق الباب السرى وراءهم : « سينتهى بكم هذا النفق إلى بئر مهجورة ذات سلم صاعد إلى وجه الأرض ، وستجدون هناك ثلاثة جياد لن يعجزها قطع المسافة القائمة دون الحدود . . . وأتمنى لكم التوفيق » . ورجع الوزير أدراجه لبعده الجياد الثلاثة ويرسلها إلى البئر المهجورة . أما السراة والأعيان الذين خذلوا مليكهم ، فقد استعدوا فى قاعة العرش لاستقبال الشاهر بهرام ، وللمناداة به شاهها على بلاد الأكاسرة . وبينما كان هذا الأخير يستقبل حياة جديدة حافلة بالعز والحمد والرفاهية ، كان كسرى يستدبر مثل تلك الحياة ، ويودع كافة آماني الدنيا

إلا أمنية واحدة . كأن يتمنى أن تكتب له النجاة ، وأن تتاح له حياة لا يشترط لها شروطاً ، بل يرضى بها ولو كانت أتعس من حياة أتعس رعاياه

تتكب الشاه وعماه اللذان صحبا الطريق السوى ، ولاذوا بالطرق الجبلية الوعرة يقطعونها تحت أستار الظلام ، ويأوون إلى الكهوف المعتمة طوال النهار ، فكان نهارهم أسود كليهم سواء بسواء . ولم يكمل الشاه ولم يتعب ، ولم تهدأ نائفة خوفه . وكانت حوافر خيله التى تهب الأرض تزعجه لأن الوهم أدخل فى روعه أن الثوار قد يسمعون وقعها ، فكان يكبح جماح جواده ويطلب إلى رفيقه تخفيف سرعة العدو . ولكن سرعان ما كان الوهم يصور له من جديد أن أعداءه فى أعقابه وعلى وشك اللحاق به ، فيختلف رأيه ، ويلهب ظهر جواده بسوطه ، ويندفع بين الصخور الزلقة التى قد تكون أشد خطراً عليه من ملاحقة الثوار .

ومر على الطريد الشريد ورفيقه أسبوع لشد ما اختلف عن سابقه . أسبوع جزع وشدة وقنوط ، على حين قد امتلأ الأسبوع السابق بألوان الدعة والرفعة والأمل البراق . وأدرك عندئذ أولئك الهائمون على وجوههم أنهم صاروا بمنجاة من طائفة الثوار ، فأخذوا يتخيرون النجعة المناسبة للالتجاء إليها . وأشار الأميران بالتوجه إلى الجنوب صوب الحجاز أو اليمن منوهين بما جبل عليه العرب من حسن الضيافة وإغاثة الملهوف ، ومتوجسين خيفة من الروم الذين تأصلت كراهية الفرس فى نفوسهم . ولكن الشاه الذى بدأ يطمئن على حياته لم يشاركهم فى رأيهم ؛ لأن سراب الأمل عاد إلى مداعبته ، وأوحى إليه أن إمبراطور الروم قادر من دون العرب على إسداء يد المعونة إليه ، وإمداده بجيش يمكنه من استرداد ملكه . وغرّب الركبان الجياع الواهون فى اتجاه بلاد الروم لأن أمر الشاه مكتوب له النفاذ ولو كان صاحب الأمر مخلوعاً منبوذاً . ولم يلبثوا أن اعترضت سيلهم ربوة لم يكادوا يتبوءون قممها حتى أشرفوا على مدينة رومية تقع على الحد الفاصل بين بلادهم وبلاد الروم . وخفقت قلوبهم وتزوّت بين جوانحهم لأقتراب الساعة التى سيتقرر فيها مصيرهم . وشطح بهم التخمين ورجّحهم بين اليأس والأمل . والتمس كسرى الخلاص من عذاب خواطره المضنية بأعداد الحديث الذى سوف يلتقى به بين يدي العاهل الذى يقصده ، وإحكام الحجج التى سيدلى بها إليه ليقتنعه بضرورة معاونته على إخضاع

مغتصبى عرشه . ولم يشعر ثلاثتهم ، وهم فى شغلهم الفكرى الشاغل ، بطول المسافة التى قطعوها إلى تلك المدينة ، ولم يفتقروا من سبحات فكرهم إلا وهم وقوف على باب السور الكبير .

رحب بهم حاكم المدينة وأكرم مثواهم . وقد أدهشهم أن يعلموا منه أن نبأ الثورة وما أعقبها من انتصار بهرام وهروبهم وصل إلى علمه منذ يومين وأنه أرسل إلى إمبراطوره رسولا يستطلع رأيه فى شأنهم لأنه توقع مرورهم بمدينته . وضابت الدنيا فى وجه كسرى وثقلت عليه خطوات الزمن وهو ينتظر قرار عدوه فى شأن مصيره .

وحان الفرج بعد شدة الحرج ، ووصل وفد من قبل الامبراطور موريق إلى هيرابوليس ، وهى المدينة التى نزلها كسرى وقضى بها حقبة عسيرة لم يعرف خلالها أهو أسير مقيد أم ضيف مكرم . وسمع هذا اللاجئ الحائر ، وهو لا يكاد يصدق أذنيه ، من رسل قيصر الروم ، أن سيدهم سعيد بالتجاء عاهل الفرس إلى بلاده ، وأنه يود أن ينعم بلقائه فى القسطنطينية ليظهر بنفسه مبلغ اغتباطه بهذه الزيارة اليمونة .

وانتشر بين الناس نبأ قدوم الشاه إلى بلادهم وترحيب قيصرهم به ، فخرجوا فى كل مدينة مر بها وهو فى طريقه إلى القسطنطينية لاستقباله ، وأظهروا له من دلائل الابتهاج بمقدمه ما أثار عجبه . ولو اطلع على ما يدور بأخلاقهم لهاله أن يعلم أنهم أملاوا من وراء وقوعه فى أيديهم أن يتخذوه وسيلة لتغلغل جيشهم إلى قاعدة ملك أعدائهم . وبعد رحلة طويلة هونت عليه مظاهر إجلاله وإكباره مشقتها ، وصل إلى شاطىء البسفور حيث استطاع أن يلمح فى شاطئه المقابل معالم القسطنطينية التى كان يطمع فى القدوم إليها غازياً ، وما ابتعدت السفينة التى استقلها لاجتياز المضيق عن الشاطىء قليلاً حتى أمكنه أن يتبين أعلام الزينة التى نصبت فى عاصمة بلاد أعدائه احتفاءً بمقدمه إليها .

رست السفينة إزاء حديقة القصر الامبراطورى ، وكان سيد القصر واقفاً بين وزرائه وكبار رجال حاشيته لاستقبال زائره . وما التقيا حتى طوق كل منهما الآخر فى عناق حار ، وبدا الحصان اللودان كأنهما صديقان هيمان . وافتر شعر كل منهما عن أعذب البسات ، فى حين لم يفكر كلاهما إلا فى أمثل طريقة يستطيع أن يستغل بها صاحبه .

ولم يعن كسرى بما حوى قصر بيزنطة الفاخر من روائع التحف التى ترى إليه صيتها وهو لم يزل فى بلاده النائبة ؛ فقد شغل عنها فى هذه الآونة العصبية بهالك نفسه على معرفة النية التى يبيتها له مضيفه . وبعد جولة فى أنحاء ذلك القصر الفاخر جلس الضيف والمضيف فى شرفة شرقية تطل على القرن الذهبى حيث تبرجت الطبيعة عن أروع فتنها . وما وقع لمخلوق أن رأى تلك الفتن إلا بهر بها وأخذ أخذاً . ولكن نصيبها من اهتمام كسرى لم يكن أوفى حظاً من نصيب التحف والرياش البيزنطية التى مر بها منذ هنيئة وألقى عليها نظرات شاردة .

أخذ يتحدث إلى جلسه فى أمر استعادة ملكه . وقال له فيما قال إن الكارثة التى أصابته لا تتعلق به وحده ، لأن كل ذى سلطان معرض لثلها ، فهى تتعلق بالملوك جميعاً . ومصالحهم تقتضى التكاتف والمعاودة فى حالة نزول أية ملمة بأحدهم ، حتى يطمئن كل منهم إلى حصوله على العون نفسه فيما إذا احتاج إليه ، وحتى لا يحدث أى طامع فى الملك نفسه بالثورة على ملكه . وتكلف قيصر الروم العطف على المستعين به ، وتظاهر بأنه اقتنع كل الاقتناع بالآراء السديدة التى أدلى بها ، وعاهده على أن يجيش له جيشاً جراراً يضعه تحت تصرفه . ووقع كسرى فى الغفلة التى يقع جل الناس فيها ؛ لأنه لم يقطن إلى أن موريق قد يكون مثله فى طمعه وفى تحرقه إلى بسط سلطانه على بلاد غيره من زملائه الملوك .

اطمأنت نفسه ، وشاعت الغبطة فى كيانه ، وسرّح طرفه فى ألوان الطبيعة المتلائلة أمامه ، فرأى جمالاً لا يطيف مثله بخيال الشعراء ، وتعاون الأمل الجديد المنبثق فى نفسه مع حسن المناظر المتجلية له على تهيئة جو حوله من السعادة لم يعرف مثله حتى أيام تنويجه السعيدة .

وجاء الليل بخواطره السود ، وأفض مضجع كسرى التفكير فى أولئك الثوار الذين أزعجوه وشردوه ، وجعل يتخير لتعذيبهم أبشع الوسائل ، ويفتر ثغره عن بساط رهيبة وهو يفكر فيما يفكر فيه . ولم تحدث له فكرة استرداد سلطانه بعض النعيم الذى أحدثه شعوره بقرب إشباع شهوة انتقامه . ولم يضع موريق هنيئة من الوقت عبثاً . وأشرف بنفسه على الاستعداد لغزو البلاد التى طالما حلم بضمها إلى أملاكه . ولكن كسرى القلق التبرم

كان يستبطن ذلك الاستعداد متهمًا الروم بعدم المبالاة بأمر تلك الحملة التي توزطوا في تجريدتها لمجرد مرضاته . ويعد انتظار مضمّن مشحون بلواعج الضجر والسأم تم له ما أراد . وسار ملك الفرس على رأس جيش أعدائه ليفتك بجيشه ويرغم أنف رعيته .

توغلت كتائب الروم في أراضي الجارة الخوفة ، ولولا قيام الشاه على رأس الغزاة لقهرهم الجزع قبل أن يقهرهم أعداؤهم . ومر يوم بعد يوم دون أن يظهر للخصم المرتقب أثر . وعاود الشاه المتعطش لسفك الدماء ضيقه وتملله ، وزاده هذا الضيق والتلملل حرصاً على التشفى والأخذ بالثأر . وفي عشية أحد الأيام جاء المستطلعون الروم بنبأ وضع حدًّا لذلك الانتظار المل . قالوا : إن جنود الفرس يرابطون على شاطئ نهر الزاب القريب .

طاف نرسييس قائد الروم في صحبة الشاه بفصائل جيشه متفقدًا مبلغ أهبتها للالتحام بالعدو . ولم يغيب عن الجند أن سيد الفرس كان أكثر لطفة على قهر بلاده من قائدهم . وخيم الليل وسجا ، واعتل نسيمه ، وانتشرت نجومه ، وأتاحت الطبيعة للقوم نعمة الاستمتاع بمحورها . ولكنهم انصرفوا عن هذا النعيم إلى التفكير في نار الجحيم التي سوف يصلونها في الصباح التالي . وانقضت ليلة رهيبة اختلجت فيها القلوب ، واضطربت الأعصاب ، وبات الجميع يذكرّون الموت الذي يترصدهم إلا كسرى الذي لم يكن يفكر إلا في استرداد عرشه ، وفي الانتقام من أعدائه .

وما كاد فجر اليوم التالي يرسل أشعته الأولى حتى مشى كل من الجيشين إلى الآخر في حذر وتهيب . ولم تلبث الواقعة أن وقعت ، والتحم الفريقان في قتال بذل أحدهما فيه دماؤه ليحتفظ بهرام بعرش الأكاسرة ، وبذلها الآخر ليشبع موريق مطامعه ويوسع رقعة ملكه . ولولا وصول الشاه سالمًا إلى بلاد الروم واستعانته بعاهلها لما أربقت تلك الدماء ، ولا بذلت تلك الأرواح .

ولم يشترك كسرى أنوشروان في المعركة ، ولم يُزج الصفوف تحت الدُّرّس كما ظهر في نقوش أنطاكية ، ولكنه وقف مع عميه على ربوة عالية يرقب المعركة التي كانت تدور على أحر مرمى بصره ، ويغتنم غيظًا لقصور نظره عن تمييز ما يعثورها من كبرٍ وفرٍ . وكان يزعجه بين حين وحين صهيل الجياد الثلاثة التي أعدت لهربه مرة أخرى إذا دعت إلى ذلك حاجة .

وجرى لبهرام أثناء المعركة ما جرى لكسرى في قاعة عرشه أثناء الثورة ، إذ خشي أنصاره انتقام الشاه في حالة اندحارهم . وفكر كل منهم في أن يسبق غيره إلى الاستسلام والاستغفار عما سلف . ولم يلبثوا أن تباروا في هذا المضمار ، وطفقت جماعة من الزعماء تلقى سلاحها بعد جماعة ، وسعوا إلى الأسر صاغرين . ثم توسلوا إلى نرسييس قائد الروم أن يقودهم إلى الشاه ليقدموا إليه فروض الطاعة . وعندما هل عليهم المليك الذي ثاروا عليه سجدوا له والتسوا المغفرة . وتفقّد كسرى بينهم الثائر بهرام ، فلما لم يجده وعلم أنه ولي الأدبار ، وعد أن يغفر لمن يأتيه برأسه .

وجرى الذين عاونوا بهرام على الثورة في كل اتجاه ، باحثين عن زعيمهم المنكود . ومضى كل منهم نفسه بأن يتمكن من قتله ليعود إلى الشاه المنتصر برأسه ويفوز برضاه . ولم يلبث بعض المحظوظين منهم أن فازوا بما أملوه ، وعادوا بالرأس المقطوع تقطر منه الدماء ، وقدموه وهم يصيحون صيحات الطرب إلى العاهل الغاضب . وما افتر لهم ثغره عن ايتسامة الرضا حتى سجدوا له وتمسحوا في التراب .

وتبدلت حظوظ سراة فارس ، واختلقت أقدارهم ؛ فحظى بالعطف السامى كل من أصابته نقمة في العهد الغابر ، كما أصاب التنكيل كل من نعم برضا بهرام . وأخرج وزير كسرى القديم من غيابة السجن واقتيد إلى قصر سيده وقد أعشى عينه ضوء الصباح . وجرت الأمور من جديد في مجراها القديم . ولم يتغير إلا قلب كسرى الذي زادت ثورته الثوار ثم العصف بقادتها عنثاً وخبث طوية ، وإلا مجلسه في قاعة العرش إذ احتل نرسييس قائد الروم المقعد القائم إلى يمين كرسى الملك .

ولم يهتم أحد بهذا التغيير الأخير الطفيف إلا الوزير السنن ؛ فقد كره القائد الرومي من صميم قلبه ، وازداد له على توالى الزمن كرهاً ؛ لأن ذلك الأجنبي لم يجلس إلى جانب كسرى صورة كما كان يجلس عم هذا الأخير من قبل ، بل كان يتدخل في كل حديث يجري بين العاهل وبين كبار رجال حاشيته أو كبار حكام الدولة . وكان يبدي رأيه في كل شأن من شؤون الحكم ، ويصر على أن يحمل رأيه دائماً على أنه أمر واجب الطاعة .

لم يطق الوزير الصبر على هذه الحال . وفتاح كسرى في أمر هذا الدخيل

المتهجم على سيادة الدولة ، وعلى حق صاحب الأمر والنهي . ولكن صاحب الأمر والنهي كان مشغول البال عن مثل هذه الترهات بتوزيع رضاه وسخطه بين عباده وفق أهوائه المتضاربة . وطال الزمن وقائد الروم ما يزال سادكاً بمقعده إلى عيين الشاه ، وجيش الروم ما يزال مرابطاً بمعسكره إلى جانب قاعدة الملك .

وجرو الوزير على سيده ونهبه مرة أخرى إلى ما في بقاء تلك الحال على ما هي عليه من مساس بعزة الدولة وكرامة العرش ، وأشار عليه بأن يكتب إلى إمبراطور الروم مطالباً بأن يستدعى هذا الأخير قائده ترسيس ، ويسحب جيوشه التي فرغت من المهمة التي كلفت بها . وما طرقت أذن كسرى عبارة سحب الجيش الرومي حتى ثارت ثائرتة ، واشتد حنقه على وزيره ، ورماه بالحرق وأفن الرأي .

وعول الشيخ المحنك على أن يحقق غايته بحسن السياسة ، فصبر على مضض متحجناً الفرص . واستطاع بما جبل عليه من دهاء ، وما اكتسب طوال إقامته في قصر سادته من طول باع في الحيلة والمكر والحداع أن يوغر على مر الزمن صدر كسرى على القائد الذي أعاد إليه ملكه ، وأن يحمله على الكتابة إلى موريق في أمر مسلكه النابي . وأملى الشاه على وزيره شكواه إلى الإمبراطور ، واقتصر على المطالبة بإراحتة من ذلك الممتن عليه . فلما أعاد الوزير الكرة وأشار عليه بأن يطالب كذلك بجلاء جيش الاحتلال عن بلاده ، غضب كسرى من جديد ، ورماه بخيانة عهده وعدم مبالاته بسلامته وسلامة عرشه من طمع الطامعين فيه ، وتحمس فختم رسالته بأن ذكر لموزيق أنه اتخذ الجيش الرومي الذي وطد له ملكه حرساً له .

وحقق له صديقه الطامع فيه رغبته . وأرسل القائد جرمانوس ليحل محل ترسيس ، وقال في رسالة أنفذها إليه إن المحافظة على حياته الغالية التي هي أئمن شيء في الوجود لا تقوم بعوض ، وهو لذلك لا يقتضى منه ثمنها كاملاً ، ولكنه يكتفى باقتطاع البلاد الفارسية الواقعة بين التخوم الشرقية لدولته وبين نهر الرس ، وبضمها إلى أسلاكه . ولم يجد كسرى في طلب نصيره أي ضير . فإ هي قيمة البلاد والعباد إذا قيست بسلامة رأسه الغالية ! وقبل أن يجيب الطلب المتواضع كان جيش موريق قد غمر تلك المقاطعات السحيقة ونفذ رغبة سيده دون انتظار موافقة من صاحب الشأن عليها .

وصبر سراً الفرس مرغمين على تلك المعرة التي لطخت بلادهم ، وسكنوا على رضا صاحب العرش بالضم وصبره عليه . ولم يشذ إلا الوزير الذي اعتاد أن يرى سادته أقوىاء الشكيمة شم الأنوف . وصارح مليكه بأنه يفضل غيابة السجن على وضوح النهار الذي تجرى فيه هذه الخطوب . وتناسى كسرى أياديه عليه ، وأخذ بقوله ، وأعادته إلى الغرفة المظلمة التي اختارها له بهرام فيما مضى . ولم يكن جرمانوس أقل جوراً على سلطة الشاه من سلفه نرسيس ، ولكنه كان أكثر منه توخياً للكياسة واللباقة في تحقيق مراميه . وجرت الأمور في هواده على منوال واحد ، ولم يعكر صفو كسرى معكر وهو يعترف وسعه من متع حياته المترفة وملذاتها ، حتى ترامت إليه أنباء مشيرة عن أحداث جسام خطيرة العواقب حدثت في بلاد الروم ، إذ وقع موريق في محنة أشبه بالمحنة التي وقع هو فيها من قبل ؛ فقد شق عليه فوكاس عصا الطاعة ، وألب عليه شعبه ، واندفع على رأس جحفل جرار من الثوار صوب بيزنطة ليثل عرشه .

دار الفلك دورته ، وأخذ نجم موريق يأفل على حين أخذ نجم كسرى يتألق من جديد . ونفض هذا الأخير عن نفسه الذلة والمسكنة ، وعصفت في نفسه عواصف العزة المكبوتة إذ شعر بأنه يستطيع اليوم أن يرد مثل اليد التي أسديت إليه ، وأن ينقذ منقذه ويحمي من حماه . ونشط إلى إعداد جيشه ، وجهز منه العدد العديد والعدة الوفيرة . واعتدل في هذه المرة على ظهر جواده ، وسار على رأس جيشه الجرار ميمماً شطر جارته الثائرة . وكان كل جندي من جنوده يتحرق لهفة على الانتقام من الروم وغسل الإهانة التي لحقت ببلاده منهم بالدم المراق . وعب عباب ذلك الجيش وسال على بطاح أرمينية فغمرها . وشد ما اختلفت حاله اليوم عن حاله بالأمس حين انحسر عن بلاده أمام جيش نرسيس كاليم وقت جزره ، أما اليوم فهو يطم ويربى على البطاح كاليم إبان مده . ودلت الأنباء المتواترة على خطورة الحالة في بيزنطة حيث وصل الثائر فوكاس إليها ، وضيق الحصار على الإمبراطور وأسرته وهم قابعون في قصرهم . وبينما كان كسرى يستعد لاقتحام آسيا الصغرى إذ وصل إلى سمعه النبأ الفاجع ، وهو مقتل موريق وأولاده في قصرهم الإمبراطوري .

ونبتت في ذهن الشاه من جديد تلك الفكرة التي خلبت فيما مضى لبه ، وهي ضم الإمبراطورية الرومانية الشرقية إلى أملاكه . ولكنها لم تكن في هذه المرة

وهماً يتوهمه حين يسطح به الخيال ، بل كان تحقيقها في تناول يده ، لا سيما بعد أن اغتيل موريق ، وشاعت الفوضى في أرجاء تلك البلاد ، وتخاذل حماها أمام قواته الزاحفة كما تتخاذل الفرس من قبل أمام قوات نرسييس . وقسم جيشه قسمين ، وجه أحدهما إلى بيزنطة والثاني إلى الشام .

وبينا هو ينتظر تسليم مدينة أنطاكية بعد أن طال حصاره لها إذ جاء جرمانوس يبشره بأن هرقل والى ليبيا الذى زحف بجيش عرمرم إلى القسطنطينية بأمل إنقاذ الامبراطور ، اشتبك بجيش الثوار ودحرهم ، وتمكن من دخول بيزنطة والانتقام للملكه بقتل فوكاس وأشياعه . وظن جرمانوس أن كسرى سيغتبط بهذا النبأ الذى سيكفيه مؤونة مواصلة القتال ، ويتيح له العودة إلى بلاده لاستئناف حياة المرح واللهو الماضية . ولكن الشاه الذى لم يشجع من إراقة الدماء صارحه بعزمه على مواصلة القتال متذرعاً بأنه يريد أن يتحقق بنفسه من أنه لم ينج أحد من المعتدين على صديقه الراحل من القصاص .

تولى خوريام قيادة شطر الجيش الفارسى المتجه شرقاً . وما أنس من خصمه الضعف حتى انطلق بجنده في أعقابه من غير هوادة ، يدك حصونه ، ويتلف عدته ، ويشنت شمله ، ويلاحق فلوله . ولم يزل به حتى أوهن عزمه ، وقلقل البقية الباقية من نخوته وشجاعته ، ولم يجد بعد ذلك مشقة في القضاء عليه قضاء مبرماً . وسقطت دمشق وقيصرية في يده كما تسقط الثمار اليانعة ، وواصل زحفه حتى وصل إلى بيت المقدس فضرب حوله الحصار .

ولم يجهل الفرس مناعة أسوار تلك المدينة ، ووطنوا النفس على احتمال طول الحصار . ولكن الحظ الذى واثم منذ ابتداء حملتهم لازمهم كعادته حتى النهاية . فثار جماعة من المضطهدين فى المدينة على حكومتها . وتناحر أصحاب الملل والعقائد المختلفة . وهب اليهود فى وجه المسيحيين مطالبين بدم شهدائهم الذين نكل بهم هؤلاء . وشاعت الفوضى فى البلد المحاصر ، واختل فيه الأمن ، وعمه النهب والسلب ، فنفدت المؤونة قبل الأوان . وتمكن الساخطون الثائرون من فتح أبواب الأسوار المنيعه ، فتدفق منها جحفل الفرس كالسيل الجارف .

ولم يوطد الغزاة النظام بل زادوه اختلالاً . وأخلى لهم اللصوص الميدان ، غفلوا محلهم ، وأتوا على البقية الباقية من مال أهل المدينة ومتاعهم . ثم عملوا

السيف والنار، فقتلوا من صادفهم من السابلة، وأحرقوا الدور. وزادهم توقد النار وتدفق الدم جنوناً، فلم يتورعوا حتى عن قتل النساء والأطفال، وعن إحراق الكنائس والمعابد. وأعدت بذلك مدينة بيت المقدس أفخ إعداد لاستقبال الشاهنشاہ المنتصر.

لزم قتي من طلبة العلم نافذة غرفته الحقيمة القائمة على دار متوارية في أحد الأزقة، وأخذ يرقب في هلع واضطراب ما يحدث في الطرق المكشوفة له. وكانت عيناه تشخصان وتتسع حدقتاهما كلما تتبع حادثاً من الحوادث الرهيبة التي لم تكف عن الوقوع على مرأى منه، ثم تدوران في أثر مشهد آخر لا يقل رهبة عن سابقه. رأى المذبحة منذ بدء نشوبها حين جرت الجماهير في الطرقات وهي تصيح صيحات وحشية: « دخل العدو المدينة... العدو في أثرننا ». ثم سمع الصراخ والعيويل والأنين يتصاعد ويمتزج فيؤلف نغماً مؤلماً أشبه بموسيقى الجنائز. ولم تلبث شوارع المدينة أن أقفرت إلا من جثث القتلى والجرحى الملقاة في عرضها. وما هي إلا هنيهات أخرى حتى ظهر الفرس الذين كانوا يطاردون ضحاياهم، ويرشقونهم بالنبال. وكثر جريهم يمنة ويسرة، واقتحامهم الحوانيت، وملء أيديهم مما وقع تحتها من خيرات. وحاول بعضهم دخول المنازل فأخذ يدق أبوابها دقاً عنيفاً ثم يبذل جهده في سبيل خلعها. ولكن القوم المحتمين في عقر دورهم بذلوا هم كذلك قضاياهم ليدفعوا عنهم غائلة أولئك المعتدين. فوضعوا كافة ما يمتلكون من أثاث وراء تلك الأبواب، وقابلوا دفعها من الخارج بدفع مثله من الداخل. واستأثروا في الدفاع عن مساكنهم لأنهم لم يجهلوا المصير الذي كان ينتظرهم في حالة انخراطهم.

وما نشر النساء إهابه الأسود على المدينة حتى وقعت الطامة الكبرى. فقد طاف حملة المشاعل من جنود العدو بالأبواب الموصدة وأضرموا فيها النار. وهب نسيم السحر العليل فأجج اللهب المشتعل، وارتفعت الألسنة الحمر متوهجة. وشاهد طالب العلم المروع على ضوءها تفتح الأبواب الموصدة، وتدفق المناكيد منها، ووقوف الفرس لهم بالمرصاد، وانهباهم عليهم طعناً وضرباً. وسمع ولولة النساء وهن يجررن بمزقات الشياب، مطوقات بالأذرع المقتولة العضلات، وعبثاً كن يحاولن منها الانفكاك. وكثيراً ما لمح القتي المروع أناساً يجرون صارخين وقد شبت النار فيهم، وزادها جريهم تأججاً.

كان المسكين يحس كأنه يلفظ روحه كما شاهد روحاً تلفظ ، وكان جلده يحترق كما أبصر النار تمسك باطراف محترق . كان يموت ويحيا في كل طرفة عين ، ويعلم علم اليقين أن مصير هؤلاء ينتظره بين لحظة وأخرى . وكثيراً ما أيفن أن تلك اللحظة الأخيرة حانت فعلاً . فقد كان يطرق أذنيه وقع أقدام تصعد في السلم حتى السطح ، فيغمض عينيه ، ويجبس أنفاسه ويستسلم للموت الموشك على اقتراسه . ولكن الأقدام الصاعدة في السلم كانت تعود أدراجها ، وكان يسمع وقعها أثناء نزولها وهو يتنفس الصعداء .

ولم يطق البقاء على هذه الحال المفزعة . فقد كان على يقين من أن العدو سيصل إلى غرفته لاحالة ، وسيظفر به ويقضى عليه دون أن تتاح له فرصة للهرب . فاذا عوّق العدو في مجيئه فستلهمه النار التي كانت تقترب من داره شيئاً فشيئاً . ولم يزل في هذا الاضطراب والعذاب حتى زاغ بصره ، وخيل إليه أن الغرفة تضيق به ، وأن حوائطها يقترب بعضها من بعض ، فصرخ من هول ما هو فيها ، ووثب صوب السلم ، ونزل درجاته قفزاً ، وخرج من الدار لاهثاً . وما وصل إلى الطريق حتى سرت في بدنه رعدة جديدة من الخوف . فقد ذكر ما شاهده وهو يطل من نافذته على شوارع المدينة . فتوارى مسرعاً في الأزقة المظلمة ، مبتعداً على قدر إمكانه من الأحياء التي شبت فيها النار .

وقادته ساقاه المرتجتان اللتان كانتا تحوران وتلتويان تحته إلى غرب المدينة . ووجد نفسه فجأة إلى جانب سورها الكبير . ورأى وهو يحسب ما يراه وهما ، أشباحاً تنسل من فجوة في السور أحدثتها أحجار مجانيق الفرس قبيل سقوط المدينة . واستطاع حين ثاب إلى رشده أن يدرك أنه يرى أناساً أسعفهم الحظ مثله ، وقادهم كما قاده إلى طريق النجاة .

ألفت المحنة بين أولئك المهاجرين الذين انضم إليهم الفتى طالب العلم . وعطف بعضهم على بعض ، وساعد قويمهم الضعيف وهم يقطعون المفاوز والسهوب متخبطين في جنح الظلام ، متلهفين على الوصول إلى ساحل بحر الروم . وأشرق الصباح ، ثم توسطت الشمس عرض السماء ، وهؤلاء النكدودون يغدون في المسير دون توقف . واقتسموا فيما بينهم الزاد الذي استطاع أتوياء الأعصاب منهم أن يفكروا وقت هربهم في حمله معهم .

واصلوا السير يوماً آخر ، وهانت عليهم مشقة السفر في وهج الظهيرة كما

هان عليهم سرى الليل ؛ لأنهم كانوا يشعرون بعد كل خطوة يخطونها أنهم صاروا أكثر بعداً من الهول الذى خلفوه وراءهم . وفى صباح اليوم الثالث هبت عليهم نسبات البحر فأنعشت أجسامهم الخائرة القوى . ثم انبسط أمامهم الأزرق الرجراج المتمد إلى غير حد . فهبت عليهم نسائم الحرية والحياة الآمنة الرغدة . استقلوا سفينة سارت بهم فى طريق الاسكندرية ، وحدثهم الربان وهم فى عرض البحر عن ذلك الثغر التاريخى الذى ثبت لأشد الغزاة خطراً ، وردت أسواره الضخمة أعنف هجماتهم . ورشفت أذن الفتى طالب العلم هذا الحديث العذب وارتوت منه نفسه . وأخذ يعلم بيوم الوصول إلى ذلك الثغر المنيع ، غير عابئ بالبحر الذى زاد اضطرابه حتى أقلق بال جميع الركاب . وألقت السفينة مراسيها بعد أيام على شاطئ السلام والأمان . وتفتح للفتى مجال اغتراف العلم من مناهله الأصيلة ، وبدد بعد الشقة بينه وبين بيت المقدس كل أثر للوهم والحزع اللذين طالما انتاباه . وتوطدت طمأنينته توطد أسوار الثغر الضخمة . ومرت الأيام حتى كاد مرورها ينسى الفتى الأهوال التى وقعت تحت بصره فى البلد المنكود الذى خلفه وراءه .

ولكن سوء الطالع أبى إلا أن يلاحق الفتى حتى بعد اعتصامه بنجعته النائية الحصينة . فوصل إلى علمه فى يوم نحس نبأ تناقلته الألسن عن اقتحام الفرس مدينة بلوز القائمة على حدود مصر الشرقية ، وانحدارهم مع فرع دمياط إلى مدينة منف . ثم توالى الشائعات عن دورانهم حول رأس الدلتا ، وصعودهم مع فرع رشيد إلى الأسكندرية . ولم تفزع هذه الأنباء الفتى فحسب ، بل كذلك ملأت قلبه يأساً ؛ فقد أيقن أن حتفه يلاحقه ، وأن أسوار الأسكندرية لن تحول بينه وبينه ، بل إنه لا بد لاق هذا الحثف على يد الفرس ولو اعتصم بكبد السماء .

وخرج يوماً من داره فرأى الناس صفر الوجوه مرتعدى الفرائص . وسأل عما حدث فعلم أن حراس أسوار المدينة شاهدوا عن بعد طلّاع الجيش الفارسى زاحفة صوبهم . وبعد ساعات مليئة بالحزع والخور سمع أهل الاسكندرية همهمة الغزاة متصاعدة من وراء الأسوار ، وشاهدوا جنود الدفاع تعتصم بأماكنها المتباعدة فى فجوات الحصون والقلاع .

وأعادت تلك المهمة المتصاعدة من وراء الأسوار إلى ذهن الفتى ذكرى

المنبجة الرهيبة التي توشك أن تقع من جديد ، وظهرت له صورها قوية واضحة حتى لكانها تتكرر أمامه ثانية . فانتفض كما كان ينتفض أمام نافذته في ذلك اليوم المشئوم . وحمل رأسه بين يديه ، وجرى في الطرقات كالمخبول ، وصاح في الناس يجردهم بطش الفرس ، ويستنزل اللعنة على كل من تحدته نفسه بخيانة المدينة وحذلان المدافعين عنها . ولولا الكرب الذي ملاء كل قلب لشبع سامعوه في ذلك اليوم سخرية منه ومفا كهة .

وشغل نفسه بالطواف المستمر بالأحياء المجاورة للأسوار ، يراقب قطانها . ويتجسس أخبارهم خشية أن يكون بعضهم قد بيت النية على فتح أبواب المدينة لمحاصريها كما فعل الخونة في بيت المقدس . وكان كلما حدث الناس عن وساوسه ، وقص عليهم نكبة بلده القديم أجابوه بأن أهل الإسكندرية يضعون مصلحة ثغرهم فوق كل خلاف خاص بنحلهم ومذاهبهم ، وأن كل واحد منهم أيا كانت عقيدته يؤثر الموت على أن تطأ قدم الغازي أرض وطنه .

ولم يهدأ الفتى ولم يطمئن باله ، ولم يكف عن الطواف طوال النهار بالأحياء التي اشتبه في أمرها ، وعن التقلقل أثناء الليل في فراشه ، والتقلب فيه كل هنيهة على جنبه . وكثيراً ما كانت أعصابه المضطربة تصور له وهو على تلك الحال من التقلقل والتقلب أن الفرس تمكنوا من دخول المدينة ، وأن حملة المشاعل يضرمون النار في المتاجر والمنازل . فكان يحس ما أحسه في غرفته القديمة من خوف ويوقن أن بقاءه محصوراً بين الجدران الأربعة سينتهي به إلى الوقوع في قبضة السفاحين أو في لهب النيران دون أن تتاح له فرصة للهرب . وكان يقفز من فراشه كلما انتابته هذه الوسواس ، ويدخل ملابسه في مثل خطف البرق ، ويهفو إلى خارج الدار ليعود إلى طواف المراقبة والتجسس .

وبينا كان ييجول ذات ليلة مثل هذه الجولات المسائية على أثر وقوعه فريسة لأوهامه ، قاده قدماه إلى شاطئ البحر ، واستهواه لألاء القمر المائج فوق سطح الماء ، فجلس على الرمال يرقب المنظر الساحر الذي خفف عنه عبء الوهم الجاثم على صدره ، ورأى القمر يغيب في أحضان اليم ، ولاحظ كفهراق الأفق وتجهمه بعد غيابيه . ولم يطل أمد ذلك الا كفهراق والتجهم ، ونسيت البسيطة قمرها الراحل ، وأخذ الأفق الشرقي يتورد استعداداً لاستقبال الشمس المؤذنة بالطلوع . ولم يلبث الفتى أن غفل عن نفسه ووسواسها وهو يتأمل الطبيعة التي بدأت

تكشف النقاب عن قسمة حسنها الساحر . ورأى فيما رأى خطأ قائماً يرين على الأفق البعيد ، حيث يلتقى الماء بحافة السماء ، وحسبه بادي الأمر سحابة تساقطت على صفحة اليم وتراكت هناك . ولكنه لاحظ بعد قليل أن ذلك الخط يقترب من الشاطىء ، وسرعان ما ازداد ضوء الفجر سطوعاً ، وصرخ الفتى صرخة مدوية إذ تبين حقيقة ما رأى . وحاول الهرب من الشاطىء فخانته قدماه ، وسقط على الزمال فاقد الوعي . وفتح عينيه بعد قليل فوجد نفسه محاطاً بأناس أقبلوا على صراخه . وطن في أذنه لغظهم وتساؤلهم عما به . ودارت عيناه إلى البحر . وأيقن في هذه المرة أن ما رآه لم يكن وهماً . فالبحر مليء بالراف المراكب القادمة إلى الشاطىء ، وسرت في جسمه رعدة اصطكت لها أسنانه . وخرج من حلقه المرتعد صوت أشبه بصوت وحش مذعور ، وأشار بيده إلى ناحية البحر ، واستطاع الملتفون حوله أن يميزوا من قوله كلمة « الفرس . . . الفرس » . وحقته بعضهم ضاحكين لدى سماع هذه الكلمة ، وأقبل بعضهم الآخر عليه مشفقاً . وقال له رجل منهم وخط الشيب لحيته : « ليس هؤلاء القادمون إلى الشاطىء فرساً . ولكنهم صادة الأسماك ، يقضون ليلهم في رمى الشباك . ويعودون بصيدهم عند طلوع الفجر . »

ولم يهدأ روعه إلا عندما نزل الصيادون المصريون الشاطىء واستوثق بسمعه وأذنيه من حقيقة أمرهم . وسار إلى داره مضطجع الحواس . ودخل غرفته وارتمى على فراشه منهوك القوى . وظل باله مشغولاً بذلك الخط الذى اكتمل به الأفق في الصباح . وإذا به يستوى جالساً على حين فجأة في فراشه ، وإذا وجهه يمتقع ، وأطرافه تبرد وترتعد ؛ فقد خطر له خاطر رج كيانه رجاً : خطر له أن الفرس قد يلجأون إلى الحيلة ، فيرتدى بعض جنودهم ملابس صادة الأسماك . وينزلون الشاطىء دون أن يستلفتوا الأنظار ، ويقصدون إلى الأبواب فيقتلون حراسها ويفتحونها على مصاريعها ، ويتدفق جيشهم منها إلى المدينة ، وتتكرر مأساة بيت المقدس .

ظل ينتفض في فراشه ، وجحظت عيناه من شدة الرعب . ولكن خاطراً جديداً خطر له كالتماع البرق ، فهدأ فجأة ، وانبسطت أساريه ، وقرت عيناه . وشعر بعد الاضطراب المصنئ بهدوء عجيب . خطر له أن ينسل تحت جنح الظلام إلى معسكر العدو ، ويقابل كسرى فيبسط له تلك الحيلة التى

تيسر له مهمته ، وتمكنه من فتح المدينة التي استعصت على جبابرة الفاتحين .
وبعد يومين نزل الفرس شاطيء الاسكندرية فجراً في ثياب الصيادين المصريين
وفتحوا أبواب الأسوار . وأخذ الجيش المصرى على غرة ، فانهمز أمام الخدعة
غير المتوقعة ، بعد أن عزت على أعدائه هزيمته عنوة .

وظل الفتى في معسكر العدو خارج المدينة لا يجرؤ على دخولها . ولم يذق
طعم الهدوء والاطمئنان كما توقع ؛ لأنه شعر بأنه يشارك كسرى هذه المرة في
تحمل وزر المذبحة التي أقامها الفرس هذه المرة على شاطيء عروس بحر الروم .
وصل جيش الشام في مده إلى آخر المطاف . ولو تبصر كسرى وفتن إلى
أن صرح المجد الذى يبنى على العدوان لا يلبث أن ينهار ، لاستطاع أن يرى
ما يجتبه الغيب ، وأن يعلم أن أوان الجزر قد آن ، وأن جيشه سيجلو عن الأصقاع
التي احتلها ، وينهزم أمام الأمم التي هزمها ، وسيقتلص سلطانه ، وسينكمش حتى
يقبع في دياره من جديد .

محمد مفيد الشوباشي

(١) ...
(٢) ...
(٣) ...
(٤) ...
(٥) ...
(٦) ...
(٧) ...
(٨) ...
(٩) ...
(١٠) ...
(١١) ...
(١٢) ...
(١٣) ...
(١٤) ...
(١٥) ...
(١٦) ...
(١٧) ...
(١٨) ...
(١٩) ...
(٢٠) ...